رسائل

أبى القاسم القالمى

عمل

عبد الوهاب بن منصور

عضو المجلس الإدارى لجمعية العلماء

الطبعة الأولى

١٣٧٠ - ١٩٥١

مطبعة ابن خلدون - الشارع الوطنى تلمسان

dahmani y

رسائل
أبى القاسم القالى

عمل

عبد الوهاب بن منصور

الطبعة الاولى

١٩٥١ = ١٣٧٠

مطبعة ابن خلدون – تلمسان

مقدمة

هاتان في الحقيقة رسالتان لارسائل ، جمعنا مثناهما تبعاً لمن يرى أن الجمع عند العرب يكون لما فوق الواحد ، وأملا في أن لاتقدما للطبع مرة ثانية حتى تكونا أضيفت إليهما رسالة ثالثة أو رسائل أخرى متعددة من إنشاء كاتبهما ، تجعل الجمع على حقيقته عند من يرى أنه لايكون عند العرب إلا لما فوق اثنين.

وحذار أن يسألني أحد عن منشئهما ، فانه – ان فعل ذلك – لن يظفر مني إلا بجواب يشبه شبها كبيراً ما أجابت به الاحياء العربية ذلك السائل الذي جاءها يوماً يسألها عن نمالة إخوان محمد بن يزيد... ولن يستفيد مني إلا ما يزداد به حيرة وجهلا ، لاما يكسبه خبرة وعلماً فاني أنا الذي سهرت الليالي ذوات العدد ، مقتمراً لجاج الآداب المغربية الاندلسية ، لم أكتسب عنه بعد البحث الطويل ، ماينقع الغلة ويشفي الغليل ، واني كلما استنطقت ما بين يدي من كتب التاريخ ، واستفتيت ما تجمع لدي من دواوين الادب ، سخرت مني تلك الكتب ، وأعرضت عني تلك الدواوين وأبت في تمنع ودلال ما عليهما من مزيد ، أن تبوح لي بسر هذا الكاتب الاديب ، فاذا ألححت عليها وأسرفت في الالحاح وتضرعت أليها وبالغت في الضراعة أعجمت بنزر من الكلام ولم تفصح ، وجمجمت بقليل من الحديث ولم تصرح ، فأطوي ما بين الدفات ، من أوراق وجزازات ، وأرجع الى نفسي ، وقد كادت تذهب على هذا الكاتب وأمثاله حسرات وحسرات...

و عفا الله عن أهل المغرب الاوسط ، فانى ما أظن على وجه البسيطة أمة أتعس منهم فى آدابها حظاً ، أو أعثر منهم في تاريخها جداً ، فقد أهملوا أئمتهم وأعلامهم ؛ وزهدوا فى أدبهم وحضارتهم ، ونسوا عن عمد عظماء هم وكبراء هم ، ونفضوا اليد من مشاهير عصورهم ، ومساعير حروبهم ، ولم يذكروا بالفخار ، الاكبار علماء هم وأدباءهم مثلما تفعل الامم الاخرى ، حتى أنكر عليهم الخصوم الماضي المجيد ، والشرف التليد ، وقالوا لهم : أنتم رعاع لاماضي لكم ولاحاضر ، ولن يكون لكم بنتائج المنطق يوم باهر ، ولامستقبل زاهر ، وقد واظب أولئك الخصوم على ادعاء ذلك ، وأصروا على ترديده فى كل كتاب يكتب ، أو صحيفة تنشر ، أو خطاب يلقى ، أو محاضرة تذاع ، حتى أدخلوا الوهم إلى عقول الناس ، وبذروا بذرة الشك فى نفوسهم ، فأصبحوا يرون ذلك حقاً لايقبل الجدال ، وصدقاً لاجرم فيه ولامراء ، وتلك قصوى أماني الواغلين الذين يزحمون ، والوارثين الذين لايرحمون ، والامم – شرح الله صدرى وصدرك بالعلم ، ونور عقلى وعقلك بالفهم – لاتبنى اليوم الباهر ، والمستقبل الزاهر ، إلا على ما يضارعهما من أمس مجد مضيء ، وماضى فخار بالعظائم ملىء . وما كان فى هذا وذاك من حضارة رفيعة العماد ، ومدنية طويلة النجاد ، وقادة دوخوا الممالك ، وزعماء ولجوا من أجل شرف أوطانهم أوعر المسالك ، وعلماء تثلج الصدور بالتعرف على آثارهم ، وأدباء تقر العيون بالنظر إلى بنات أفكارهم ، ومحققين هذبوا العلوم وأقاموا قناتها ، ومدققين صقلوا الفنون مما علق بها من صدا الاوهام ، وزنجار الاساطير ، ولهذا نرى الامم

الحية تتعلق لبلوغ هذا المرام ، حتى بخيوط الرتيلاء ، وتجمع له غبار الهواء ، وذرات الهباء ، وتخرج من العدم وجودا ، وتنشر من الخرق البالية أعلاماً وبنودا ، وتبنى للناشئة من الحبات قباباً . لتهيئى لاعتزازها بأممها وأوطانها وسائل وأسباباً ، علماً منهم بأن الناشئة التى تنشأ من غير وعي قومي ، وتترعرع دون إحساس وطنى ، هي ناشئة لا ينتظر منها إذا شبت واكتهلت ، أن ترفع عالياً منار الوطن الذى حبت فوق أرضه ودرجت ، ولا يرجى لها ان تشيد بمفاخر الامة التى هبطت من أصلابها ، وتحدرت من أرحامها ، بل يخشى عليها أن تتنمر للوطن وتتنكر للامة ، فتخرج من هذا خروج السهم من قوسه ، وتنسلخ عن تلك انسلاخ الارقم عن جلده ، وقد حدث هذا بأرض الجزائر ووقع لا لان الجزائر عديمة رجال ، مقلولة نصال ، وإنما لان أهلها لم ينشطوا للتأليف فى سنيهم الخوالى ، ولم يعتنوا من تسجيل أعلامهم ، وتاريخ ، قائمهم ، إلا بالنزر اليسير ، ثم أتى وادى الفتن فى القرن العاشر وما بعده فطم على قري ذلك النزر وأتلفه ، ثم كانت قاصمة الظهر فى القرن الماضى ، فكانت ثالثة الاثافى ، والامم التى تصطلح على إنهاك قواها هذه الاقانيم الثلاثة (التفريط – الفتن – الاستعمار) هي أمم كتب على ناشئتها أن تنشأ عاقة غير بارة ، وقدر لنا بنتها أن تنبت معوجة غير مستقيمة ، مدبرة غير مقبلة ، إن ذكر اسم وطنها هزت الاكتاف احتقارا ، وان لاحت بارقة من أفق أمتها لوت الاعناق استكبارا واستصغارا ! حتى كأن هذه الامة عراق كلب فى كف مجذوم.

و الكاتب الذى ينشر اليوم رسالتيه أورسائله شاهد عدل على

صحة ما نقول.

فنحن لا نعرف من يكون بتدقيق ؟

ولا نعرف اسم أبيه وجده، ولا إلى اي القبائل ينتسب ؟

ولا نعرف فى أي سنة ولد، ولا أول ارض مس ترابها جلده.

ولا نعرف شيوخه الذين تخرج بهم، ولا المدن التى قد يكون ارتحل إليها طلباً للعلم، ورغبة فى تحصيله.

ولا نعرف متى بدأ حياته الادبية والسياسية والعلمية، وهل سبق له أن عمل مع بنى حماد أمراء بجاية، قبل الاتصال بخلفاء الموحدين ؟

ولا نعرف تلاميذه وبطانته، ولا تاريخ وفاته ومكانها كما لا نعرف هل خلف من بعده أثاراً علمية أو أدبية، وأين توجد إن كانت ؟

فهذه الاستفهامات كلها لا يحدثنا عنها التاريخ بشيء، بل يقف أمامها فى صلف وكبرياء ساخراً صامتاً.

ومثل وقفته تلك، يقف أمام عشرات من الشخصيات، ومئات من المواضيع الجزائرية الاخرى متعاظما متكابرا، يكاد المستفهم عنها يتميز من الغيظ تجاهه.

وكذلك يستخف التاريخ بشان من استخفوا بشأنه فى القديم، فيعفى عليهم فى الاولين، ويشمت بذريتهم فى الآخرين.

وكذلك تندثر أعلام، وتنطمس أقوام، مابين إهمال وانتقام.

ومن لا يكرم نفسه لا يكرمه الزمان، ومن هانت عليه نفسه عاش طيلة حياته فى هوان.

*

* *

أكتب هذا وقد صح العزم اليوم على طبع هاتين الرسالتين، وسبق القلم فخط فى مكان العنوان من هذه الصفحات اسم كاتبهما البئيس، أقول البئيس ولا حرج، لان من قدر على حياته أن تجهل كما جهلت حياته وكتب على آدابه ان تمحق كما انمحقت آدابه، لهو البئيس الذي لا يخامرك الشك فى بؤسه، والشقي الذي لا يتطرق الريب إلى شقائه، وليس أشقى منه وأبأس إلا رجل قام بحمل نفسه مشقة وعناء، ويحرمها مسرة وهناء، بازاحة الستار عن هذه الحياة، ونفض الغبار عن تلك الآداب، بعد ماأخنت عليهما الشهور والعصور، وتعاونت على إبادتهما السنون والقرون.

ومع ذلك فلا مناص من عمل شيء، إن لم يكن ترجمة فما يشبه الترجمة، وان لا يكن تعريفاً فما يقرب من التعريف، لان ماخط فى اللوح لا بد أن يبلغ أجله، وما جرى به القلم حتم أن يكون، وما كان لكاتب عمل يراعته أن يضعها حتى يعفي على ظلمات الجهالة بأضواء المعرفة.

وقبل المشروع فى هذه المحاولة، تحسن الاشارة الى أن المصدر الوحيد الذي يمكن الرجوع إليه للتعرف على حياة هذا الرجل، هو كتاب (المعجب، فى تلخيص أخبار المغرب)، للمؤرخ المغربي الاديب ابى محمد عبد الواحد التميمى المراكشي، المتوفى ببغداد سنة ٦٢٥، كما أن المصدر الوحيد الذى يمكن للمرء أن يتعرف منه على أدبه، هو الكتاب المسمى (مجموع رسائل موحدية، من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية) الذى نشره برباط الفتح سنة ١٣٦٠ معهد الدروس المغربية العليا.

و فى عـد هاذيـن الكتابين مصدرى حياة وأدب لهذا الكاتب البئيس تسامح كبير.

ممن يكون الرجل ؟

أما اسمـه فعبد الرحمـان، وأما كنيته التى كان بها يدعى فأبو القاسم وأما نسبه الذي كان يعرف به فالقالى.

و القالى نسبـة إلى قالمة، المدينة الجزائريـة المعروفة، الواقعة جنوبي مرسى عنابة، فى منتصف الطريق بين حاضرة قسنطينة، و الحدود التونسية وبذلك صرح المراكشي فى المعجب(ص١٢١)فقد قال إنه من أهل مدينة بجاية، من ضيعة بأعمالها تعرف بقالمة، ولا يوقعنك فى إشكال قول المراكشي (ضيعـة مـن أعمالها) مع ماتعرف من بعد الشقة بين بجاية وقالمة فـان تلك عادة الجغرافيين و المؤرخين القدماء، يضيفون القرى الصغيرة، و الاماكـن المجهولة، إلى مـا يكون مشهوراً بين الناس من مدن كبيرة، وحواضر شهيرة، والمراكشي نفسه يفعل ذلك كثيراً فى المعجب، فيقول مثـلا آسنا من عمل تنملل، و الجزائر من عمل بجاية، كما قال عند إشارته إلى القصيـدة التى نظمها رجل من أهل الجزائر، وقرئت على قبر المهدى بتنملل، بمحضر أمير المؤمنين ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مع ان بين تنملـل وآسنا، وبيـن الجزائر وبجاية ما بين هذه وقالمة من المسافات أو يكاد.

وقول المراكشى (من أهلها) يوقع فى التباس ثان، فهو يوهم أن الرجل بجائي المولد والنشأة وأن النسبة إلى قالمة قد تكون جاءته من هجرة

أبيـه أوجده منها إلى بجاية، حيث عرف بين اهل البلد الذى هاجر إليه بالنسبة إلى البلد الذى هاجر منه، ثم لصقت النسبة بعد ذلك بمن أنجب فيـه من اولاد واحفاد، كما يدعى اليوم فى فاس بالتلمساني والفجيجى كثير ممن هاجر اجدادهم منذ قرون اليها من تلمسان وفجيج، مع ان طيف هاتين المدينتين لم يزرهم حتى فى المنام، فضلا عن ان يطؤوهما بالاقدام، وأيـاً كان، فالرجل من اهل المغرب الاوسط، و الفخر به حاصل لهم، سواء انتمى الى قالمة، أو اعتزى الى بجاية.

، اياك ان تسالنـى عن مـولده متى كان؟ فستحملنى من شانه اصراً، وترهقنى من امره عـسراً، وان قسوت وقسحت، وابيت الا ان تجـاب عما سالـت، فاعلم انه لا يمكن تعيين السنة التى ولد فيها على سبيل التحقيق، وان كل ما يمكن قوله، هو انه ولد فى العقد الاول من القرن السادس على وجه التقريب.

أما أسرته ومحتـده، وطفولتـه وشبابه، وشيوخه وتنقلاته، ومعارفـه ومعلوماته، وأخباره وانباؤه قبل الاتصال بالموحدين، فأمور يمر بها التاريخ مر الكرام، دون ان يعبأ بكلام، او يخشى من ملام.

وفى سنة ٥٤٧ اتصل بأمير المؤمنين، عبد المومن بن على، أول خلفـاء المـوحدين، واخذ يعمل فى ديوانه كاتباً للانشاء، وذلك اثر فتح بجاية، وفرار اميرها يحيـى بن عبد العزيز آخر امراء بني حماد الى عنابة ثم الى قسنطينة وكانت قوة القالي الانشائية و يومئذ مكتملة، وآفاقه البلاغية متسعة، تطأطئى هامهاله الفصاحة، ويسلس قياده له جواد الصناعة، نبيهاً من

أعلام الكتاب، والى ذلك يشير المراكشي فى المعجب (ص ١١٩) بقوله:

(... الى ان افتتحوا بجاية، فاستكتب عبد المومن من اهلها رجلا من نبهاء الكتاب، يقال له ابو القاسم القالمي).

ومن المسلم به ان القالمي لم يكن يحتل فى السنوات الست الاولى من عمله مكانا بارزاً فى ديوان الانشاء، وانما كان يشغل وظيفة ثانوية تشبه وظيفة (المعاونين) فى الادارة العصرية، يأتمر فيها بامر من هو اعلا منه وينتهي بنواهيه، لان الصدارة كانت يومئذ للكاتب المراكشى العظيم، ابى جعفر بن عطية القضاعى الذى كان عبد المومن جمع له بين وظيفتي الوزارة والكتابة، لما آنس منه الحزم و الدهاء، و المقدرة على تصريف الامور، وتدبير الشؤون، فلما قتله سنة ٥٥٣ اقتضى نظره ان يفصل الوزارة عن الكتابة، ويردهما الى ما كانا عليه قبل ان يجمع بينهما لابن عطية، فأسند الوزارة الى عبد السلام الكومى الندرومي الملقب بالمقرب، اما الكتابة فجعل عليها رجلين اثنين، أحدهما ابو القاسم القالمى صاحب هاتين الرسالتين، وثانيهما ابو محمد بن عياش القرطبى، ولا يشير التاريخ الى اي الرجلين كان رئيساً وايهما كان مرءوساً، و لكن يكاد يكون من المحقق ان القالمى كان الرئيس وان القرطبى كان المرءوس، لان الاول اقدم من الثانى فى الخدمة، ولان امانة سر الدولة اسندت فى الواقع الى القالمى سنة ٥٤٧ لا سنة ٥٥٣، وانما استبد ابن عطية بالكتابة ست سنوات قبل مصرعه لماله من الدالة على الخليفة، والمهارة فى قيادة سفينة الدولة وسط ثبج محيط صخاب مواج، والذى يدل على ان الخليفة قصر اعمال ابن عطية على الوزارة دون الكتابة بعد ان

كان يجمعهما له، وان ابن عطية انما كان يلى الكتابة استبداداً ما بين سنتي ٥٤٧ و ٥٥٣ قول المراكشي فى المعجب (ص ١١٩).

« ... واستوزر اباجعفر احمد بن عطية، فجمع بين الوزارة والكتابة، فهو معدود فى الكتاب والوزراء، فلم يزل عبد المومن يجمعهما له إلى افتتحوا بجاية، فاستكتب عبد المومن... » الخ وقد تقدم.

ولا نعرف شيئا من أخبار القالمى فى وظيفته، ولا ماقد تكون جرته هذه الوظيفة عليه من شدة أو رخاء، وسعادة أو شقاء، كما أننا لانستطيع أن نحدد وجوده بمكان ما فى وقت إلا مرة واحدة سنة ٥٥٥، وهي السنة التى رافق فيها الخليفة الى غزو إفريقية وكتب خلالها رسالة من رسائل الفتوح بفحص متيجة يوم الاثنين ٢٤ ربيع الآخر، ولكننا نستطيع ان نقول بناء على ما نعرف من حالة الزمان، ونظام الحكم يومئذ – أن الرجل كان يسير فى ركاب الخليفة حيثما سار، يظعن بظعنه ويقيم باقامته.

وبقي القالمى على عمله بديوان الانشاء، حتى اخترمت المنية مخدومه العظيم عام ٥٥٧، فخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الملقب بالعسرى، ولم ير ما يوجب تأخير أبى القاسم عن وظيفته، وصرفه عن أمانة سره وسر أبيه من قبله، وكان القالمى من غير شك يرافق الخليفة الجديد فى حله وترحاله، واجتاز معه البحر إلى الاندلس فى إحدى غزواته، وكتب منها رسالة يخبر بما سناه الله من الفتوح لاوليائه بنا حيتي قرطبة وإشبيلية، ولم يزل مقرباً منه، أثيراً لديه، حتى حم حمامه، وعلقت به شعوبه، فى بلدة وسنة سكتت المصادر التاريخية المتداولة عنهما سكوتها عن كل ما يتصل به،

فاستكتب الخليفة بعده تلميذه وصاحبه الكاتب البجائي العظيم أبا الفضل جعفر ابن محشرة البجائى (المعجب ص ١٤٨).

وقد اغتم الخليفة لوفاة كاتبه واهتم، وبدا على وجهه أثر الاسى والكآبة، واغتمامه هذا يذكر باغتمام أبيه عندما قتل أباجعفر بن عطية، فإن أحداً من الكتاب والشعراء على كثرتهم وبراعتهم – والقالمى من جملتهم! – لم يملا عينيه، حتى قال بعد أن امتحنهم: ذهب الادب، وذهبت الكتابة بذهاب ابن عطية، أوشيئاً هذا معناه. واغتمام هذين الخليفتين لوفاة كاتبيهما البليغين له وجه من الصواب وجيه، لا لان الكتاب كانوا يومئذ من الندرة والقلة بحيث لاتجد الدولة كاتبا لاحقا إذا اخترمت المنية كاتباً سابقاً، فقد كان كتاب العدوتين يعدون يومئذ بالمئات، وكانت الدولة فى ريعان الشباب وربيع العمر، والدنيا فى إقبال، والبدور فى كمال، وانما وجه الصواب فى اغتمام الخليفتين هو أن أمانة أسرار الدولة وظيفة خطيرة الشان، عظيمة المقام، تقتضى من متوليها أن يكون ثقفا لقفا، حاذقاً لبقاً، ذاقوة نفسانية يستجلى بها مكان من النفوس وينفذ بها الى مخالج الاذهان، وأنى لعبد المومن أن يجد أميناً للسر من طبقة أبى جعفر بن عطية؟ أو لابنه أبى يعقوب ان يظفر بموضع للثقة كمثل أبى القاسم القالمى؟

وقد أشار أبو العباس الغبرينى فى عنوان الدراية (ص٣٠) إلى حزن الخليفة على القالمى، لدى الكلام على سبب استدعاء تلميذه ابن محشرة لاحتلال مكانه، بقوله:

(... أخبرنا شيخنا الفقيه ابو محمد عبد الحق بن ربيع أن سبب

استدعائه أن كاتب سر الخليفة فى ذلك الزمان توفي، واهتم أمير المؤمنين لذلك غاية الاهتمام، وكان مسعود بن سلطان الرياحى المعروف بمسعود البلطي وفد على أمير المؤمنين من هذه البلاد، وكانت له عنده مزية، وكان يحضر معه اكثر الاوقات فى الخلوات، قال: فدخلت عليه يوما فوجدته مهتماً مغتماً، وقد ظهر التغير فى وجهه، فقلت ياسيدنا! ياأمير المؤمنين ما الذى أهمكم لاأهمكم الله! فقال لى إن كاتب سرنا فلانا قدمات، وقد احتجنا إلى من نقيمه مقامه، وما وجدنا، لانه يحتاج فى كاتب السر أن يكون على صفة كذا، وعلى نعت كذا، فقلت له: بشراك ياسيدنا يا أمير المومنين، هذا الرجل ببجاية، ابو الفضل بن محشرة، ووصف له من صفاته ماوقع منه موقع القبول) الخ الخ.

ولنرجع الآن إلى أدب القالمى، محاولين التعرف عليه بعد الذى تقدم من محاولة التعرف على حياته، ولنقل بادىء ذى بدء إنه لم يبق من هذا الادب إلا رسالتان اثنتان أثبتتا فى مجموع الرسائل الموحدية المشار إليه آنفا، وهما الرسالتان اللتان ننشرهما اليوم على انفراد واستقلال، مع هذه المقدمة التمهيدية خدمة للثقافة العربية، وإشادة بأدب قطر كريم هيض جناحه، ولايرجى بغير هذا الادب وما يشبهه فلاحه أونجاحه.

فالرسالة الأولى كتبها القالمى على لسان مخدومه أمير المؤمنين عبد المومن بن علي، رحمه الله، ورزق الاقطار المغربية عصاميا مثله، يرفع عنها الضيم، ويقشع من آفاقها الغيم، كتبها من فحص متيجة، جنوبي الجزائر، يوم الاثنين ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٥٥، وهي السنة التى تعرف فى تواريخ المغرب

العربى بسنة الاخماس، إلى الطلبة والشيوخ، والاعيان والكافة من الموحدين من أهل فاس، يخبرهم فيها بانتصار جيوشه على عرب إفريقيا، وانهزام هؤلاء ثم استسلامهم، وإنابة من أناب منهم، مع تفصيل حال كل قبيل على حدته، وداعيا فى ختامها إلى إظهار السرور، وإشعار الجمهور.

والرسالة الثانية ليس لها تاريخ، وقد كتبها القالمى من إحدى قواعد الاندلس على لسان مخدومه الثانى، السلطان أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن، مخبراً فيها بعيث نصارى أبلة ومن انضاف إليهم بجهات استجة ومنتورو، والوادى الكبير، بين قرطبة واشبيلية، ثم قيام القوات السلطانية بالكرة عليهم فى أقصى فحص هلال، حيث خضدت شوكتهم، وكسرت حدتهم، (فرأى الكفرة من بأس الله الذى لا يرد، وجنده الذى لا يصد ماهالهم وراعهم، وأنساهم جلادهم ومصاعهم).

ومما لاريب فيه، أن هذه الرسالة الثانية كتبت مابين سنتي ٥٦٧ و ٥٦٩، أعنى المدة التى قضاها السلطان ابو يعقوب مقيما بالاندلس خلال غزاته الاولى التى وحد فيها الاقطار الاندلسية، وأضاف إلى أمبراطوريته الواسعة ما كان منها باقياً فى يد محمد بن سعد بن مردنيش، ولم تكتب فى الغزوة الثانية لهذا السلطان، وهي الغزوة التى حدثت سنة ٥٧٩ ولقي فيها السلطان حتفه عندما اختلط الحابل بالنابل فى حصار مدينة شنترين، لان أباجعفر بن محشرة البجائى – تلميذ القالمى، وخلفته من بعده بديوان الانشاء – كان يومئذ قد سلخ عدة سنوات فى خدمة أبى يعقوب، وهو الذى رافقه أيضا إلى الاندلس فى هذه الغزوة الثانية، وكتب على لسانه منها عدة رسائل

بل رافقه قبل ذلك سنة ٥٧٦ إلى غزو إفريقيا، وكتب على لسانه من حاضرتها تونس الخضراء رسالة مؤرخة بمنتصف شوال سنة ٥٧٦ مما يدل على ان القالمى كان فى حيز العدم قبل هذا التاريخ.

وقد أخطأ المستشرق الفرنسي لاوى بروفنصال ناشر (مجموع رسائل موحدية) حين زعم أن هذه الرسالة الثانية كتبت على لسان الخليفة عبد المؤمن، مع أن نظرة واحدة يلقيها المرء عليها تكفى لنفي هذا الزعم لديه وإثبات عكسه، فاما اولا فلان القالمى... بعد ان يحمد الله ويصلي على نبيه فى مستهلها، يلتمس الرضا (للامام المعصوم، المهدي المعلوم) كما هي عادتهم فيما يكتبونه من الرسائل، ثم يلتمس مثله (لخليفته امير المؤمنين مؤازره ومظاهره... ووارث مقامه الكريم)، ومثل هذا لم يقع قط فى الرسائل التى كتبت فى حياة عبد المؤمن، وانما جرى به العمل بعد وفاته، وإما ثانيا فلان الكاتب يشير فى ثنايا الرسالة إلى أن الجيوش السلطانية ميزت وسرحت إلى النصارى (مع إخواننا وأشياخ الموحدين)، والتاريخ لايذكر لعبد المؤمن (اخوانا) شنوا له الغارات، وضربوا له بسهم فى الفتوحات، وانما يعرف له (أخوين) اثنين خاملين غير نبيهين، لم يشتركا فى حرب، ولم يشتبكا فى طعن ولاضرب و(الاخوان) الذين كانوا يباشرون ذلك هم السادة الامراء إخوان السلطانين أبى يعقوب يوسف، وأبى يوسف يعقوب المنصور، وطالما قاد هؤلاء السادة فى عهد أخويهما السلطانين المذكورين الحملات، وخاضوا المعارك فى ربوع المغرب وجنبات الاندلس.

وفى هذه الرسالة الثانية وردت كلمة لم نفهم مدلولها بتدقيق،

وهي كلمة (الافريرين) الذين تشير الرسالة إلى أنهم ظاهروا نصارى أبلة فى الهجوم على المسلمين، ولعلهم رجال من جماعات الفرسان المسيحية التي بدأت تتعصب فى مطلع القرن الهجرى السادس لمحاربة المسلمين، وافتهاز الفرص لشن الغارات على ضيعهم المنعزلة،وحصونهم النائية، وقد بدأت هذه الجماعات الحربية تظهر فى مملكتي أراغون وقطلونية عندما أوشك امر الموحدين أن يظهر بالاندلس، وكان أمراء هاتين الامارتين المسيحيتين يقدرون قدر هذه الجماعات، ويعرفون كفايتها وغناءها، سيما الملك ألفونسو الاول ملك أراغون الذى وضع عدة مشاريع لانشائها وتعميمها فى سائر جهات اسبانيا النصرانية، سواء منها ما كان خاضعا له،أو تابعاً لغيره، وكان ذلك سنة ٥١٢ عقب فتحه مدينة سرقسطة،وبنائه قلعة منريال، ثم انشئت بعد ذلك عدة جماعات دينية أخرى محاربة، أشهرها جماعة فرسان المبد التى نظمت على مثال جماعة الداوية التى انشأها صليبيو المشرق ببيت المقدس، وجماعة فرسان قلعة رباح التى كانت لها مع المسلمين معارك والتحامات، منها المعارك التي حدثت فى الفترة التى أقامها السلطان ابو يعقوب بن عبد المومن بالاندلس فى الغزوة الاولى،فلا يبعد ان يكون المراد بـ(الافريرين) هؤلاء الفرسان النصارى الذين كانوا يحاربون تحت شعار الدين،وان ذلك ليتأكد للانسان عند ما يعلم ان كلمة (فريلى) أو (فريرى) تطلق إلى الآن فى المغرب الاقصى على رجل الدين من أهل ملة المسيح.

أما عن أسلوب القالمي في هاتين الرسالتين، فهو أسلوب لا يختلف فى شيء عن أساليب غيره من كتاب الدولة الموحدية، سواء من سبقه منهم

كا بني عطية، أو شاركه أو أتى بعده كابن محشرة وابني عياش، فقد كان للقوم فى الكتابة طريقة لا يميلون عنها ولا يحيدون، فهم إما أن يبدءوا رسائلهم بقولهم : (من أمير المؤمنين فلان) داعين له بما يناسب، (إلى فلان) أو إلى الجماعة التى يكتبون إليها داعين له أو لها بما يليق به أو بها، وأما ان يبدءوا بالحمد والصلاة،والطريقة الاولى كانت اكثر استعمالا وأشد شيوعا، ثم يأتون (بالبعدية) وبعدها يحمدون الله، ويصفونه بصفات لائقة بجلاله مناسبة لكماله، ودالة فى وقت واحد على روح ما سيقال بعد ذلك، وبعد الحمد يصلون على الرسول، ناعتين إياه بنعوت جليلة كريمة، ثم يرضون عن إمامهم المعصوم، ومهديهم المعلوم، مضفين عليه من الحلى والاوصاف ما تقتضيه مصلحة الدعوة، وناموس النحلة، مما نعتقد أن أحدا من الكاتب والمكتوب إليه والمكتوب على لسانه لم يكن يومن بصحته، وقد زادوا بعد وفاة عبد المؤمن الرضا عنه، وذكر خلافته للمهدى،ومشاركته إياه فى نصرة الدعوة، وبعد ذلك يذكرون المكان الذى صدرت عنه الرسالة، ويتبعونه بجمل حالية قد تملا الصحيفة والصحيفتين،ثم يدخلون فى الموضوع ويأتون بخلاصة قبل الاخير، ويختمون بدعاء و سلام، وخلال ذلك كله يستفرغ الكاتب جهد طاقته البلاغية، ويظهر براعته الانشائية، بما يستعمل من الاساليب، ويختار من التراكيب، وينتقى من الالفاظ، ويضرب من الامثال ويقتبس من الآيات،ويورد من الاشارات،الامر الذى يقتضى من القارىء أن يكون على بصيرة من آداب العرب، وفقه لغتهم، لتكون متعته اكثر ولذته اكبر.

والحق أن للقالمى جملا أجاد فيها ما وسعته الاجادة، وعبارات أحس فيها ما أمكنه الاحسان.

وختاماً ارجو أن يتاح فى المستقبل من الوسائل والاسباب ما يمكننا من دراسة حياة القالمي وآدابه دراسة مستفيضة،أما بالنسبة إلى ما بين أيدينا الآن من الوثائق والنصوص، فلا يمكن أن نعمل غير ما عملناه، ولا أن نقول اكثر مما قلناه.

عبد الوهاب بن منصور

الرسالة الاولى

إلى الموحدين بفاس، معلما إياهم بهزيمة عرب إفريقية

من أمير المؤمنين، أيده الله بنصره، وأمده بمعونته، إلى الطلبة والشيوخ والاعيان، والكافة من الموحدين من أهل فاس، اعزهم الله بتقواه، وأدام كرامتهم بحسناه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فالحمد لله الذى تمم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب * وأناف بأغراضهم – المقصورة على مرضاته – على مطامح المطالب * ومدارك الرغائب * وبلغهم فى أعدائهم الذين ولوا أمر الله – وقد استقبلهم – جانب الاعراض والادبار، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، أماني الظافر الغالب * ووكل بهم أية ولجوا، وعلى أي مدرج درجوا، من النصر المحالف المصاحب * مايكون لعامة اكنافهم، وجنبات أوساطهم وأطرافهم، عين المحافظ المراقب * ومكن لهم إنفاذاً لمقدوره، وإفاضة لاشمة نوره، أسباب التقلب فى أفياء الامنة وظلال السكون من جانب إلى جانب * وأحطاهم نعمة منه وفضلا – وقد فاءوا بشرف الفتح الجسيم، واحتقاب الحظ العميم، واتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم –، بحظوتي الغانم الآيب * وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب *

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله الحاشر العاقب * الصادع بنوره الثاقب * لبابة الانتخاب، وسلالة الانتجاب، من لؤي بن غالب * المبتعث لتتميم مكارم الاخلاق بماحضر من الضرائب المقدسة والمناقب * وعلى آله وصحبه أولى العزم من أمره العاكف الدائب * والجد الثابت اللازب * والاثرة المشتملة على شرف المناسب * وزلف المناصب *

والرضا عن الامام المعصوم، المهدى المعلوم، القائم بأمر الله وقد التفت حجب الغياهب * وتفرقت سبل المذاهب * وخبط من ليل الحيرة فى حيث لامنفذ لجاء ولامخلص لذاهب * فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب * وأنقذ به من هوى المعاثر وأشفاء المعاطب *

وإنا كتبناه إليكم – كتبكم الله فيمن تعرف آلاءه المستعاده * وجعل انتظار الفرج بالصبر عباده * وبوأ بقرارة اليقين لتنجز ما فى ضمن الوعد من كل فتح مبين مهاده * وقابل نعمة الله التى تجلى قرة أعين صورتها، وتثنى ثبج أسماع سورتها، من الشكر الاخفى ؟ ووصائل الانتظام مبدأه منها ومعاده * – ونحن بحمد الله على آمال فى إظهار أمره وفيت * وصدور للمؤمنين من أعدائه وأعدائهم شفيت * واقذاء من مشارع دينه بهذه الاصقاع طحرت ونفيت * وآثار كفر طمست بمظاهر الايمان وعفيت * وأرحام حقوق لله تعالى بلت ببلا لها وقد كانت بفناء العقوق جفيت * فلا باطل – والحمد لله – إلا وقد دمغه الحق فدحض * ولا عرق لظالم إلا وقد سكن بعد ما نبض * ولا مبسوط جور إلا وتكمش وتقبض * ولا مغل بدائه، ومرتقب يوم اهتدائه، إلا وقد أذهب الله بعصمته، ومسحة رحمته، عنه المرض * كل تقدم اليه النذير * وأحيل بفوق مسامعه التذكير * فمن شرح للايمان صدره * وأذن بشمس الهداية فجره * وأتيح له بعد عسره يسره * انخلع من ملابس ذنبه * واستند إلى ذروة قربه * وكان على نور من ربه * ومن صم صداه * واشترى الضلالة بهداه * تبت يداه * وأرصدله بأخذ الله الاليم الشديد، وعقابه الذى على الظالمين ببعيد، حينه ورداه * وأورد – ولات حين

مصدر — موارد لا يتعداها ما لاح ابنا سمير ولا تتعداه*

وقد كنا — أعزكم الله بتقواه — قد منا مطالعتكم بما سناه الله تعالى فى غزو عرب إفريقية من مسنى أعرق فى الانتماء نسبه* وتحكم فى تأييد هذا الامر السعيد سببه* وفتق العقول لمعرفة قدره، والالسن بواجب شكره، اعذبه وأعجبه* واستغرقت الاوصاف وان مدت من لسان اللسن، ومدت وسائع القول الاعرب الابين، قرائنه ونسبه* فلمعتبر آياته* وباهر أياته* وما اطرد بين حاشيتي بداياته ونهاياته* أحوال من اللطائف الالاهية* والصنائع الربانية* لاتنحط رتب عيانها إلى الآثار* ولا تتعرض صور شاهدها فى معرض الاعتبار* وانما هي نبذ تهدى مخايل* وتقيم لكم إمارات على نصر الله تعالى ودلائل* وكان هذا الفتح العظيم فى حين إعلامكم لم يستوف طلقه بعد* ولا كمل له فى مستصفى مستحقه العقد* وأنهينا إليكم نبأه وهو فى مضماره مسترسل* والى مقتضى آثاره من كل حدب ينسل* وأحلناكم فيما وصل على ما سيصل* والآن — والله يوزع شكر نعمائه فقد عقد حباه* وأغمدت — وفيها فلول من قراع الدارعين — ظباه* واستخلص من قصده المظفر مصطفاه ومجتباه* وأمضي حكم الله إمضاء جزماً فيمن تحاماه وتأناه* ولا ثنيت الازمة* ولا رفيت الهمة* وببلاد إفريقية للقبيل الرياحى المستولى على أقطارها* المستعجل فى إضرارها* لاذكر يسمع* ولا حديث يرفع* ولا أثر يتقصى ويتتبع* ألحقوا بقبيل العدم* وقلعوا قلع الصمغة وعصبوا عصب السلم* وأصبحوا كهشيم التهبته نفحة ضرم* حيزت عليهم الثنايا والأنقاب* وتبسط فيهم كيف شاء العقاب* فلم يجدوا إلى

مستخلص سبيلا* ولا استطاعوا مضياً ولا إلى منجاة تعريجا ولا تحويلا* أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا* سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا* حقت عليهم الصيحة فأصارتهم هباء منثوراً* وضربت عليهم الذلة بكل مضطرب وملتمس من تقريرها لآثارهم، وجوسها بخلال ديارهم، سدا لا يخترق وسورا* وأحالت متون جيادهم وما اعتقدوها منية، حين ركبوها سرية، أرماساً وقبوراً* ووقف بهم حكم السيف والسنان* على طاعة او عصيان* ولا ثالث وقد خطرت الجد هاتان* فمن أبى إلا النفار* وكره الله منه الانبعاث والاستنفار* فقد قلد مناط مقلده، ومدار مخنقه، السفار* ومن أخذت السعادة بأردانه* وأوته إلى شعب الفوز وإيوانه* وقد أخذ من هاتين الخطتين بقسط باء به موفوراً* وقدمه يسعى بين يديه إما ناراً وإما نوراً*

وفى حين هذه المخاطبة — وفقكم الله — وصلت أوائل العساكر المنصورة، فقصت من قصصها عبرة لاولى الالباب* وأطلعت من معانى هذا الفتح المبارك ما أربى على العجب العجاب* وأنبأت بما أرسل الله فى جميع بلاد افريقية من سماء الامن المنسكب المنساب* وأوسعها من منتشر العدل، ومنبسط الفضل، ما لا يحتجب عن متطلبه بحجاب* وانها — والحمد لله — قد اجتثت أصل الكفرة اجتثاثا* وأضحى بها حبل الباطل أنكاثا* حسب أمن السائل السالك* وشهادة المنطق اللائك* وان اهلها من توسد الآمال، والتورك على الاقبال، فى أدمث الفرش وأمهد الأرائك* يكاد مشهوداً الامن الذى لم يتصور فى أوهامهم* ولا عرض قط فى أفهامهم* ان يعتقدوه من بعض الخيال

الطارق فى مناعمهم فالحمد لله الذى بوأ امره مكاناً عليا*ونصب للعالمين صراطاً سويا*وجعله بعموم الخير وشمول البركة ملياً وفياً*وطهر هذه الارجاء من متماقدي الظلم والكفر*ووطأة بنى السمر والصفر*واستقبل بأهلها بمستأنف إيمانهم، ومستجد إيقانهم، أشرف الحياة وأسعد العمر*
وأما ماذكر الواصلون من العساكر المذكورة، عما استاقوه من السبايا والغنائم، فما غص الفضاء بأقداره*وضاهى مدرار الوكافة المتن متمطر بدراره*وكيف وفقكم الله بأمة استخاص طريفها وتلادها*واستصفي حلالا ما أجنه ادخارها وأكنه إعدادها*وقد تحصلت هذه الانفال المباركة بأوائل هذه البلاد، وانفصل جميع بلاد افريقية هدية من عند الله مباركة طيبة*ورحمة من سماء إحسانه وافضاله صيبة*

وكان فى هذا القبيل الرياحي فخذ منهم يعرف ببنى محمد، لا حظتهم السعادة بطرف غير خفي*واحتضنتهم فى حجر من الوقاية حفي*وكان لهم مع القدر السابق بمفازاتهم جد كفيل كفي*فألقوا بمقاليد الانقياد*وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الانفس والاموال والاولاد*وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مصافرة الغزو ومصابرة الجهاد*واعتدوها بما رأوا فى سواهم من الاتعاظ الذى به سعدوا، وباعتباره أيدوا، نجعة المنتجع وبغية المرتاد*وقد تأثرت هذه القبيلة الفارة بما شد من شعوبها من أليم العض*فآثرت الانخال مع الموحدين بالقضيض والقض*وقد قوضت خيامها*وهجرت آطامها*وقدمت بين يدي استئنافها على آثار أهل التوحيد أناسيها وأنعامها*وهي جملة وافرة العدد*متظاهرة العدد*

قاصرة خدمتها على هذا الأمر العزيز آخر الأبد*ومما تسنى لها من تسن لطيف*وأرج لها من خبايا التسبيب والتكييف*أن عماد بيتها، وزعيم أمرها، أبا يعقوب يوسف بن مالك وفقه الله، كان قد خلص بحبل هذا الامر اعتلاقه*وتأكد بعهوده ومواثيقه عهده وميثاقه*وأحظاه بحظوة الهجرة إلى هذا الامر بداره واستباقه*ولم يزل على طريقة سوية*ومعاملة برة تقية* استحق بها من الرأي الجميل*ماسرى منه ففاض على هذا القبيل*فتلوم عليهم العمل*وحرم على ارجائهم بما سبق من ارجائهم النظر الاجمل*إلى أن تغمدتهم بمتابهم الرحمة*واكتنفتهم النعمة*وأخذت بحجزهم عن النار المعصمة*
وأما جشم بأسرها، فذهبت أيضا مذهب الانتقال*وأخذت فى الاغذاذ إلى ما أمرت به والارقال*وتحركت بمالها أهلا ومالا من الاثقال*وهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون*وفى مؤازرتهم التى تحملهم ومواشيهم على أعدل طرق المطاوعة والمتابعة مستمرون*وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفياح*والفضاء المنداح*وكل من هذين الحيين الجشمى، والفخذ المحمدى من الرياحى، قد عزم وأعزم به على أن تحتط إن شاء الله بالمغرب دارهم*ويبوأ هنالكم قرارهم*ويقصر على خدمة هذا الامر العزيز جوارهم*
وأما قبائل الأثبج وزغبة، فوصل أعيانهم يمدون يد الاستتابة* ويطلقون ألسنة الانابة*ويتعوذون من حرم هذا الامر بالامن والمتابة*وقد وعدوا على النظر فيما عن لهم من غراتهم*ونفذوا على إمضاء عزماتهم*فان أمضوها نية*وأبدوها طاعة جلية*فحظ لانفسهم اقتنوه*وعاجل مكروه — كما فعل بأشياعهم من قبل — تخطاهم وتخطوه*وما سواه فحكم لا يرد عن

القوم المجرمين بأسه*ولا يجهل يومه وأمسه*

وعلى الجملة، فقد أظهر الله من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة، مالم يكن ينشأ بسماء الوهم والاحساس*ولا يجرى على أساليب القياس*ولا يتقلب في قوالب العادات من الاستيلاء على ملك زمامي البر والبحر بهذه الاقطار*وكاثر فيها عدد القطار*واستظهر على شأنه بمازعم من قوى الاستظهار*فكل ما أغنى عنه جمعه*ولا حماه معتصمه ومنعه*وان فى إبادة من أبيد*واقتياد من اقتيد*لسراً من أمر الله فى تسخير هذا الوجود لامره*وإشعاراً باظهاره على الدين كله*وفى مجموع هذه الالطاف المسخرة، والآيات المرسلة،ماهو لتلك المغارب موفور*ولا مآلها في الانعطاف إليها مخبو مذخور*وعلى مايملا لحظ التشوق إلى مطالعة نور هذا الامر موقوف مقصور*فاعتبروا وفقكم الله بهذه الدلائل اللائحة*والبراهين الواضحة* أن هذا الامر العزيز إلى قيام الساعة مداه!*موقف على تمييز الخبيث من الطيب أو لياؤه وعداه*مجزى كل قسط ما أخفاه من معتقده وأبداه*مستول على الاقرب والابعد في الله يداه*وقد يممت المغارب تيميما مباركاً بحمد الله*ووليت وجوه العزائم شطرها على بركة الله وعونه*فبشراكم اليوم بشراكم*وما أخلقكم به وأحراكم*فاشرحوا اعزكم الله صدوركم*واقيموا بهذه البشائر امور كم*وأشعروا بها جمهوركم*واعقدوا باهدائها جذ لكم وسروركم* والله تعالى يجعلكم ممن اعتمد النعم بشكرها*ووفاها واجب قدرها*وارتبط كرائمها بمواصلة ذكرها*إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.*

كتب من فحص متيجة، يوم الاثنين ٢٤ من ربيع الاخر سنة ٥٥٥ هـ.

الرسالة الثانية

في الاخبار بهزيمة النصارى فى نواحى قرطبة

الحمد لله الذى قدم لاوليا أمره، فيما يرومونه من تدويخ العدو و قهره، يوما على الكافرين عصيباً* و صنع لهم فى ابراز الكفرة الى مضاجعهم وسوقهم على قدم الاغترار صنعاً عجيباً * و وعد القائمين بدعوته الناصرين لملته، فتوحاً آزفة يفتحونها، ومغانم كثيرة يأخذونها، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً* و صلى الله على نبيه المصطفى محمد الهادى الى سبل السلام ترغيبا و ترهيبا* وعلى آله وصحبه، و من لبى دعوته الى ربه، سامعاً مجيباً* سامياً فى مقام النصرة، ومحل الاثرة، أغر نجيباً* و نسأله الرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، المجدد لدينه عندما عاد غريبا كما بدأ غريبا* وذهبت به الاهواء المتبعة، والاضاليل المبتدعة: تصعيداً و تصويباً وعن صاحبه وخليفته، الامام امير المؤمنين مؤزاره و مظاهره، تو سيماً لا كناف الدعوة العلية و ترحيبا* و وارث مقامه الكريم، و أهليته القيام بأمره العظيم، منصوراً ومفتوحا له ومصيباً*

وإنا كتبناه اليكم - كتبكم الله ممن أحسن تلقي البشائر* و وفى النعمة حقها من شكر الشاكر* وجعلكم من الذين أشرقت لهم أنوار الهداية فائضة على الابصار و البصائر* من حضرة فلانة - حرسها الله، و الذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، وان تعلموا ان لله فى هذا الامر العالى، وما ناط به من اظهار الدين ونصر الملة، واعلاء الكلمة، افعالا خافية و عالنة* وآثاراً ظاهرة و باطنة* و اسراراً مجتلية ومحتجبة* و لطائف مشهودة ومتغيبة* فمهما أنسىء لعداته فى اجل الاهمال، فليساق لاولياء الله فيهم بالمساق العجيب* ولترتب لهم

حال القطع لدابرهم، والاستئصال لشافتهم، فى اجمل صور الترتيب* اشارة للمناية، ودلالة على الاثرة، و تنبها على الارتقاء فى الاسباب* وتبصرة وذكرى لأولى الالباب*

وكان مقامنا بهذه الجزيرة -مهدها الله لتتميم المقصود فيها من إظهار الدين، و نصر الملة، ومرابطة فى مصاقبة العدو- قصمه الله، و فى مهلة النظر فى حسم دائها* واستباحة أعدائها* بلغنا أن رجالا من ذميمي النصارى -وقمهم الله- من اهل آبلة، وما أخذ أخذها، و من انضاف اليهم من الا فريرن و غيرهم* كبت الله جميعهم — قاصدون قصد هذه الجهة كلاها الله، وقد وقمت الاستفاضة، وحصل العلم، بأن أهل آبلة حمة النصارى وحماتهم* ورؤساؤهم وكماتهم *وجمرتهم الملهبة* وحوزتهم المتغلبة* والشوكة التي لم يحصدها على مدى الدهر حاصد* وأنهم لما خبأ الله فيهم لأولى أمره* وأولياء نصره* سولت لهم انفسهم الخائنة، الخروج الى هذه الجهات - كلاها الله -، تخيلا منهم أن جنود الله الموحدين قد تفرقت ذاهبة، وسرحت قافلة، وانتهازاً منهم بزعمهم للفرصة، قبل احتفال الجنود، والاحتشاد لوقت الغزو، فاستمروا مصممين* وتهوروا متقدمين* ومازالوا يتقدمون الى حتفهم* وتنضرب أسباب الغي من بين أيديهم ومن خلفهم* متمالطين بالجرأة، متخمطين بالبسالة، خارقين لحجاب المهابة* ناكبين عن سنن الاصابة* الى أن بلغوا هذه البلاد حماها الله، وأجازوا الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية، واكتسحوا جملا من الغنم كثيرة بجهة استجة، ثم عطفوا على الموضع المعروف بالكنبانية، من قبلي قرطبة، و جعلوا ذلك

طريقهم إلى متورو.

ولما اتصل بنا نبأهم الذميم*وتوجه فيهم الصنع الكريم*استخرنا الله تعالى على تمييز العساكر المنصورة،وتسريبها إليهم،مع اخواننا وأشياخ الموحدين—أعزهم الله—،فاتبعوهم مجدين،واجتمعوا بالشيخ الاجل أبى حفص—أعزه الله—، ومن هنالك من الموحدين—أعانهم الله—وعرفوا بمجرد اجتماعهم،متجدد حالهم*وما انكشف لهم من صور الاحوال فى حلهم وارتحالهم*واستمدوا الاوامر التى من عادة الله تعالى إسعاد مطيعها،وتوفيق المسند إليها،فأمروا بصدق لقاء العدو—قصمه الله—،وأخذه على بركة الله الذى سبقت كلمته أن ينصر من ينصر دينه*ويبذل فى مجاهدته إخلاصه ويقينه*فاستمروا فى جد الاتباع على وجههم الميمون*ونصرهم المضمون* ودرجت أيام قدرما يوصل الطالب إلى المطلوب*ويتمحص بمكروه الكافر وهو غير المرغوب*إلى أن هتفت البشائر مالئة الاسماع*طالعة من احسن ثنايا الاطلاع*وورد الفتح الجليل*والصنع الجميل*ووصل من أعيان الموحدين—أعانهم الله—من شهد اليوم الذى أخذ فيه للاسلام بمليم الثار* وعرف الكافر لمن عقبى الدار*معهم أعلام الروم المنكوسة فيها تماثيلهم وصلبانهم*وافتراؤهم على الله وطغيانهم*ورأس شيخهم الذميم*وشيطانهم الرجيم*واتر أهل الايمان*وأشد الكفرة عتواً على الرحمان*فذكر الواصلون أن الموحدين—أعانهم الله—اتبعوهم مغذين*وأرهقوهم مشمرين*فى الركض مجدين*إلى آخر فحص هلال،وقد طمع الاعداء بالنجاة،فتهيأ هنا لكم اللحاق والادراك*وتراءى الايمان والاشراك*فرأى الكفرة من بأس الله

الذى لا يرد*وجنده الذى لا يصد*ما هالهم وراعهم*وأنساهم جلادهم ومصاعهم*وعلى ذلك فطمعوا فى الدفاع*وارتفعوا إلى اليفاع*وحملوا حملات قاصرة*وكروا كرات خاسرة*إلى أن حقت عليهم الكلمة*وحاقت بهم النقمة* وأخذتهم السيوف المستلحمة*وانصبت عليهم الجيوش من كل جانب*ورأوا الحياة كامس الذاهب*وأولياء الله وأنصار الحق وأهل طاعة أمره قد هبت لهم رياح النصر*وطلعت عليهم شارقات الظفر*ولم ينل منهم نيل*ولم يقم للكفرة فى جانبهم ميل*إلى أن ولى أعداء الله الادبار*وابتدروا الفرار* وخلوا عن غنائم كانوا استاقوها،وأسارى من المسلمين غل الله أيديهم*عن قتلهم وكفاهم تمديهم*وتمت على اعداء الله الهزيمة*الواقعة المظيمة*والتقطوا فى بقية تلكم الاناء*وقتلوا قتل الفناء*حتى صمت حصاة بدم*ولم يكد يبقى يبس القتلى محط قدم*وافتضوا كذلك تلفظهم الشواهق،وتردبهم المهاوى، وينم عليهم الليل وهو كاتم*ويدلكم لهم الصبح وهو كاسم*ولا تدم عليهم غيطلة مائفة*ولا شجرة محتفة*بل يقول الحجر:يامؤمن هذا كافر خلفى فاقتله* والى سواء الجحيم فاعتله*أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا*سنة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا*فالحمد لله على هذا الفتح العظيم خطره*الجليل قدره*الذى له ما بعده*وانسياق ما ينجز الله وعده* حمداً يبلغ رضاه*ويوجب زلفاه*ويمترى المزيد من نعماه*

وهذا الفتح وفقكم الله وأعانكم وان كان عظيما فى نفسه* عاليا فى جنسه*فانه للفتوح الآزفة مفتاح*وبين يدى السعي فيها مصباح*وانه رائد الفتوح المنتظرة*وعنوان الخيرات الميسرة*ونازل من

الفتوح الآتية بمحل الباكر من الثمرة*لما اشرب فيه أولياء الله، وأنصار الحق، وجنود الامر، وحماة الاسلام، وأحزاب الدين، من ريح الفتح، و وجدوا من عز الغلب، واستحلوا من مدامة النصر، وتوطألهم من طريق الظفر المروم*و تذلل لهم من مركب الروم*اذ عرفوا ذوقهم*وساقوا سوقهم*و لم يبق لهم فى نفوسهم قدر مقاومة، ولا محل مراقبة، ولما خامر الروم – قصمهم الله–من الرعة والروع،وانفتح عليهم من أبواب الخطب* و توجه اليهم من جنود الرعب*وباءوا به من ذل الغلب*وسوء المنقلب* وفقدوه من منكب الدفاع*ورده الامتناع*وفرسان الجلاد والمصاع* فانهم بعد أولئك الهلكى المطرحين، بمنزلة الرمح بعد السنان*والجسد بعد الجنان *فهذا الفتح العظيم قد عظمت به النعمى كثرت فيه العوائد* واستمرت منه فى الحال والمآل الفوائد*فوفوه حقه وأعطوه قسطه شكراً* ونشراً*واشاعة*واذاعة*يمتد مداها،*ولا يبلغ اقصاها،*والله تعالى يشفعه بامثاله*ويردفه بمنهل الفتح و منثاله* ويتولى توفيقكم لما يحب ويرضاه* وعونكم لما يزلف لديه فى أخراه*بمنه*ويمنه*

ه.

500.

